الشيخ أحمد بن يوسف الملياني ودوره في تدعيم الحكم العثماني بالجزائر خلال القرن 16

أ/يوسف بن حيدة/قسم العلوم الإنسانية / جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي
benhidasf1@gmail.com

الملخص:

كان للأوضاع التي عرفها المغرب الأوسط ،واحتلال الإسبانيين للسواحل دور في ظهور الإخوة بربروس عام 918هـ/1512م،وقيامهم بوظيفة الجهاد مما ساهم في قيام تقارب بين الإخوة عروج وخير الدين وأحمد بن يوسف الملياني ،حيث كان العثمانيون يبحثون عن حليف للسيطرة على تلمسان، فكانت بداية التقارب بين الطرفين عندما التقى عروج بالشيخ أحمد بن يوسف سنة 1517 ،وأثمر هذا التحالف بالتعاون في مواجهة الخطر الإسباني الزياني ،ومن نتائجه أن اعترف العثمانيون بفضل الشيخ أحمد بن يوسف في مساعدتهم ضد الزيانيين وحلفائهم الإسبان فازدادت العلاقة توطّدا بين الزاوية الراشدية والسلطة العثمانية، وقام العثمانيون بدعم زاويته واحترام أتباعه ،حيث قام خير الدين سنة 1518 بإرسال هدايا ثمينة إلى الشيخ الملياني كاعتراف له بجميله ،كما خصص له جزءا من الجزية المفروضة على اليهود ، وقد استمرت العلاقة بين الطريقة الراشدية والسلطة العثمانية على ما يرام حتى حتى بداية الإحتلال الفرنسي للجزائر.

الكلمات المفتاحية : الشيخ ، الطريقة ، التصوف – الحكم العثماني – الزاوية .

Abstract:

Sheikh Ahmed ben youcef el Miliani and this Role in Suppating the Othmanian governing in Algeria.

Ward the period that Middle meghrab,and the conlisation of the spanish in the costes ,great role apeared in the Barbaros brothers emergence ,during 918h/1512.The st that trining hey did ,when they tried leberate the coron from spanish clonolization ,after Algerien inhabitants asked that from surrial ,wher the other minians looked for Alliant to govern Tlemcen ,then they found (Sheikh) Ahmed Ben youcef the tarika Rashedia ,when it was a closely relation between the two parts meanuhile ,Aroj met Ahmed,1517,that great miance was resulted out to defend from Spanish thrat ziani.

Rentls of that Allionle Othomanians dectamed Acknowledgb in this aida gains zianians their aliances ,After the relation between ,Rashidia zawiya Othmanian authority,Othmanins supported the Zawiya of Rashidia streasm And respert his fdbwers .

Where kheir edin 1518 sent precians prents to sheikh Mliani to Aduit in his Facburitvravard and he Speufiad part of the task (foriffs) àn jews,The relation between Rashidiab way and othmanian authority au good conditiens fill the Stort French condzatia.

keyword sheikh – confrére – sufism- ottoman - zawia

قَدِم العثمانيون إلى الجزائر بهدف مواجهة الخطر الإسباني فوجدوا حلفاء لهم ومساعدين من رجال الدين وشيوخ الطرق، والزوايا، فاعتمدوا على شيوخ القادرية [1]في حكمهم ،كما استندوا كذلك إلى الشاذلية[2]، فأدركوا حجم تأثير شيوخها على الأتباع وقدرتهم في التأثير على العامة ،رغم تخوفهم من تحالفها مع سلاطين المغرب [3].

ونفوذ الشاذلية ارتبط بكثرة فروعها وزواياها وكثرة أتباعها ،حيث كانت تتمتع بنفوذ روحي على العامة نتيجة الإعتقاد السائد من طرف السكان والحكام بتأثير البركة من الشيوخ ، ومن هذا المنطلق عمل الإخوة بربروس على كسب مساعدة من السلطة الدينية ،فعمل خير الدين على زيارة المرابطين وشيوخ الزوايا ،وخاصة الزوايا الساحلية بمنطقة القبائل [4] .

ولعل من أبرز العلماء والمرابطين الذين كان يتبعون الطريقة الشاذلية خلال العهد العثماني الشيخ الثعالبي الذي كانت له رحلة إلى المغرب والمشرق ،تلقى فيها العلوم وأخذ الشاذلية عن شيوخها ،مما ساهم في انتشارها بين الجزائريين[5]، ونادى بالجهاد ضد الإسبان في مدينة بجاية والجزائر ،والشيخ محمد التواتي الذي دعا إلى الجهاد وكانت زاويته مركزا متقدما لمواجهة العدو، ومأوى للحكام العثمانيين ، ومنهم بيري رايس وابن عمّه كمال رايس الذي وجدا الأمان والإستقبال من الشيخ التواتي [6].

وكان معظم المرابطين قبل العهد العثماني من أتباع الطريقة الشاذلية،وكان أثرها واضحا ببلاد المغرب، حيث انتشرت عن طريق هجرة المرابطين لطلب العلم في المغرب

الأقصى وتونس ،والزيارات المتبادلة بين العلماء وشيوخ الطرق ،إضافة إلى ما تميزت به تعاليم الشاذلية التي لا تنكر التمتع بالدنيا والسماح بامتلاك الثروة، مما فتح المجال واسعا أمام الأتباع ،وعلى حد تعبير سعد الله فإن المتصوفة الجزائريين كان أغلبهم ماديين [7].

ولعل من أبرز العلماء والمرابطين الذين كان يتبعون الطريقة الشاذلية خلال هذا العهد الشيخ أحمد بن يوسف الملياني مؤسس الطريقة الراشدية ،الذي كان يتمتع بنفوذ صوفي وله مكانة مرموقة بين الأهالي نتيجة الإعتقاد في ولايته وتأثير دعوته وكراماته ،وأنّ الله ينزل غضبه على من أغضب وليّه كما هو الحال في سقوط وهران والمرسى الكبير وربط ذلك بدعوة الشيخ الملياني على حد تعبير الصباغ [8] .

ويرتبط نشاط الشيخ أحمد بن يوسف بدوره الصوفي وزاويته التي كان لها دور كبير في نفوذه بالمنطقة وكثرة عدد أتباعه ،وللتعرف على نشاط أحمد بن يوسف الجهادي وعلاقته بالعثمانيين نعرج على نشأته وسيرته ودور زاويته وأتباعه في انتشار الطريقة الراشدية.

1) التعريف بالشيخ أحمد بن يوسف وتكوينه الصوفي :

اشتهر أحمد بن يوسف بالملياني والراشدي واسمه الكامل حسب التعاريف : " أحمد بن محمد بن عبد الله بن يوسف بن عبد الجليل بن يمداس بن عبد الله الرضى بن حسن المرتضى بن جعفر الصادق بن محمد الناطق بن أحمد بن زين العابدين بن حمود بن علي بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الكامل بن الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب [9]، ولكن هذه النسبة إلى البيت النبوي لم يتطرق لها الصباغ في مناقبه باعتباره أقدم السِّير وأقربها من حيث الزمان إلى المعلومات الواردة ،ومن خلال عنوان التأليف أن أحمد بن يوسف راشدي النسب والدار[10] ، ونحا نحوه مؤلف تعريف الخلف برجال السلف :" بأنّه الشيخ الولي الصالح القطب الغوث الزاهد العارف العالم المحصّل السالك

الناسك المقرئ بالقراءة السبعة الحجة أبو العباس أحمد بن يوسف الراشدي نسبا ودارا "[11].

كما اهتمت الروايات المتأخرة بأمر(يوسف) الذي اشتهر بالإنتساب إليه،وقد ذهب مجملها بأنه والده بالتبني ،مع ذهاب بعض الخاصة إلى أنه ليس والده مباشرة ولكنه من آبائه الأقدمين حيث يتصل به في سلسلة النسب[12]، ولعل هذا الإرتباط غير المباشر، واعتبار يوسف جدّ قصيّ للشيخ أحمد قد تكون له دلالات وأهداف مرجوة من هذا الترتيب أو الإتصال النسبي ،خاصة وأنّ أهمية النّسب الشريف له دلالات في الإرتباط الطرقي حيث يشترط في مؤسس الطريقة أن يكون له ارتباط بالبيت النبوي في سلسلة متصلة حتى يستطيع أن يجمع عددا من الأتباع ،كما أن النسب الشريف يعتبر أحد الركائز والأسس التي تبنى عليها مشروعية الطريقة الصوفية ولعل هذا ما نجده في بعض مناقب الملياني الراشدي دارا ومنشأ، الحسني نسبا [13].

وتمثل السلسلة الشريفة التي ألبسها المهتمون بسيرة الملياني وكتب المناقب رمزا من رموز التواصل الصوفي التي أقرّها الأتباع والعامة، وساروا مسار الطرق الصوفية الأخرى ،في التأكيد على اتصال شيوخها بالبيت النبوي لتدعيم نشاطها وانتشارها، وبحثا عن نفوذ وكسب هيبة على الأتباع بما يحفظونه من شجرة النسب الشريف التي أصبحت ركنا كبيرا من أركان التصوف و تأسيس الطريقة.

ولم تتناول الأدبيات التي أرّخت للشيخ أحمد بن يوسف متى ولد بالضبط ،ولكن التاريخ التقريبي الذي حاول بعض الباحثين ترجيحه في منتصف القرن 09هـ/15م،وتنسج حول ميلاده قصص وروايات متقاربة مع قصص الأنبياء ،مما يطبعها بطابع الغلو في تقدير مكانة الشيخ وجعلها ضمن سلسلة الوسائط بين الله والإنسان، وتؤخذ في أغلبها من قصص الأنبياء على طريقة قصّة النبي إبراهيم عليه السلام [14]،أمّا حول مكان ميلاد الشيخ

فتتضارب الروايات حول مسقط رأسه، فمنهم من ذهب إلى أنّ مولده بقلعة بني راشد ،وتذهب أخرى إلى أن مسقط رأسه غير مضبوط فترجعه إلى مناطق في الصحراء بتوات أو قورارة وأيضا إقليم ميزاب، ولعل هذا قد يرجع إلى التنازع الموجود حول مشاهير التصوف، ومحاولة كل منطقة الحصول على شرف الإنتساب إليها ،إلا أنّ الدارسون أجمعوا على أنه ولد بقلعة بني راشد[15].

وبهذه المنطقة كان مستقر الشيخ أحمد بن يوسف وبالضبط بدوار رأس الماء من قلعة بني راشد ،حيث مثّل هذا الإطار الطبيعي والبشري المجال الذي نشأ فيه وترعرع وبه قضى أطوار حياته المتنوعة ، قبل أن يغادر مسقط رأسه في طلب العلم ليستقر به المقام في بجاية حيث تتلمذ على الشيخ أحمد زروق(ت 899هـ/ 1492م)[16] وأخذ عنه مبادئ الطريقة الزروقية، وساهم في تكوينه العلمي حيث أصبح حسب الروايات مصدرا للعلوم الفقهية والصوفية التي اكتسبها ،كما ذاع صيته في الكرامات ، وشكل مصدرا لدُنيا لا منّة فيه لفقيه أو فقير عليه حتى زروق نفسه [17].

2) النشاط الصوفي للشيخ أحمد بن يوسف :

بعد أن تتلمذ الشيخ أحمد بن يوسف على الشيخ أحمد زروق وأخذ عنه العهد ، لم يغادر بجاية إلا بعد إذن منه ،ولكن الإذن كان من شيخ آخر يدعى أبا القاسم البسكري، وانطلق نحو دواره رأس الماء للقيام بالوظيفة التعليمية المهتمة بالشريعة ونشر الطريقة والقيام بدور المعلم لينتفع الناس بعلمه وعمله [18].

وقد وصل أحمد بن يوسف إلى "راس الماء" هذا الدوار الذي سيكون بمثابة نقطة المركز للدائرة الواسعة التي ستشمل مناطق النفوذ المتعددة الأوجه، حيث أسس به زاويته الأولى ،وكانت خطواته الأولى الإصلاحية بسوق أم العساكر باعتبارها منطقة تجارية تعرف تجمعا جماهيريا من مختلف المناطق ،واستطاع أن يقوم بدور الإمام والواعظ والمرشد، وهكذا

نجح في كسب شهرة وتأبيد من طرف الأتباع ، وهذا ما تكشفه روحه العلمية والموهبة التنظيمية التي بدأ يتميز بها شيخ الطريقة الراشدية [19].

وقد اكتست الرحلة الصوفية التي قام بها الراشدي أهمية في تكوين الشيخ المؤسس ،بما ساهمت به من تنشئة صوفية ،ومثلت عنصرا هاما في مساره التكويني ،لأنّ السفر بما فيه من شدائد وتجارب وتحصيل معارف ،يمثل مدرسة تكوينية يتعلم فيها المريد وينمّي فيها استعداداته الخُلقية، ويطوّر مواهبه من خلال العثور على شيخ يوجهه في مسيرته الروحية.

ومما يجدر ذكره أنّ تكوينه الصوفي ساعده على تأسيس طريقة صوفية حملت اسم الراشدية نسبة إلى قلعة بني راشد، فهي تنتمي في منظومتها الفكرية وسندها الصوفي إلى طريقتين الشاذلية والزّروقية، فقد تلقى الشيخ المؤسس أصول الزروقية عن الشيخ أحمد زروق بطريق التلقين بمعهد تمقرا نواحي بجاية ،حيث أخذ عنه الطريق بسنده إلى أبي الحسن الشاذلي وطريق التبرك بسندها في لباس الخرقة إلى عبد القادر الجيلاني [20] ،واتصال الطريقة الراشدية بالشاذلية عن طريق اتصال زروق بمحمد السخاوي وهو ما انفرد به الصباغ ،كما كان لاتصاله أيضا بأحمد بن عقبة عن أبو زكريا القدير عن علي بن وفا عن محمد بن وفا عن داوود الياخلي عن ابن عطاء الله عن أبو العباس المرسي عن أبو الحسن الشاذلي [21]، وبهذا حاول أحمد بن يوسف أن يمزج طريقته بعدة مشارب صوفية فنهل من التيار الشاذلي والزروقية والغزالي محاولا الإستقلال عنها بمسحته الراشدية في التربية والتأهيل وفقا لنظام سلوكي وطقوسي خاص.

ويبدوا أن التأثير الشاذلي في الطريقة الراشدية يظهر جليّا في سيرة الشيخ أحمد بن يوسف الملياني ،حيث أخذ من مبادئها التخلّي عن الزهد في الدنيا والتمتع بملذاتها ،فلم يكن يوجه مريديه بضرورة لبس الخرقة الصوفية ،كما كان يلبس الثياب الجميلة ويركب الفرس ويملك الأراضي ، حيث يذكر الصباغ في هذا الجانب بأن الشيخ أحمد بن يوسف

لما أنهى تكوينه على يد الشيخ زروق منحه هذا الأخير حفنة من الدراهم اقتنى بها فرسا بقعاء وسرجا ودراوية (خنجر) [22].

كما قامت طريقته على أساس اختلاف المشارب الصوفية والتيارات الفكرية والمنهاج العرفاني محاولا الجمع بين الجانب االظاهري والباطني ، فقد وظّف الشيخ خبرته وعلمه وأسرار الخلق وطباعهم في تخصيص ما يلزم كل مريد من السلوك، وكان يناول تلاميذه الأذكار ويشكّلون دائرة للذكر الجماعي مع استعمال الغناء والموسيقى والأناشيد والآلات ،وتسمى أتباعه بالفقراء [23]، وكان الراشدي كثير التلقين للأتباع وغيرهم ،فقال له الشيخ أبو عبد الله الخروبي : " أهنت الحكمة في تلقينك الأسماء للعامة حتى النساء " ،فقال له :" قد دعونا الخلق إلى الله ،فأبوا فقنعنا منهم بأن نشغل جارحة من جوارحهم بالذكر فقال الشيخ الخروبي " فوجدته أوسع مني دائرة " [24] .

ونظرا للمكانة التي تمتع بها المؤسس وانتشار تعاليمه الصوفية فقد تفرعت طريقته إلى فرعين: الطريقة الراشدية الزروقية، والطريقة اليوسفية [25] التي غالت في الإعتقاد في الشيخ أحمد بن يوسف حتى نسبه بعضهم للنبوة ،وفشا توغلها على يد رجل يدعى ابن عبد الله،الذي تزندق وذهب مذهبا باطلا عن ماحكي عنه ،وتبعه الكثير من الغوغاء وأهل الأهواء من الحواضر ،وتذكر الروايات أن هذه النّحلة ظهرت في حياة الشيخ فلما بلغه ذلك قال :"من قال عنّا ما لم نقل يبتليه الله بالعلّة والقلّة والموت على غير الملّة [26].

3) نشاط زواية الشيخ أحمد بن يوسف :

تنوعت الوظائف والأدوار التي قامت بها زوايا الشيخ أحمد بن يوسف كغيرها من الزوايا الصوفية ،ولعل من الأدوار التي اختصّت بها وظيفة التعليم حيث قام الشيخ أحمد بن يوسف بدوره كفقيه وشيخ طريقة بعقد مجالس للدرس وأخرى للذكر وتلاوة الورد،

وعرفت الزاوية استقطابا كبيرا للأتباع والعلماء والفقهاء ومنهم عبد الجبار الفجيجي ،وعبد الله الخياط ومحمد بن علي الخروبي ،كما قامت زاويته بوظيفتي الإيواء والإطعام والعلاج، حيث تعتبر رائدة في هذا المجال وكانت مقصد الزوّار أفرادا وجماعات، وكانت تطعم عددا كبير من الأتباع المستقرين بالزاوية بأنواع الفواكه والأطعمة [27] ، وكانت تمتلك مئة خيمة خصّصت بعضها لإيواء الضيوف، وهذا كلّه يرجع إلى الثروة المالية التي كان يمتلكها الشيخ أحمد بن يوسف من حقول وقطعان من الأبقار والأغنام ومما يقدمه الزائرون وغيرهم من هدايا وزيارات وإعانات، إضافة إلى مميزات الفترة وما عرفه المجتمع من مشاكل الفقر وقساوة المعيشة التي تطلبت من الزاوية بزعامة شيخها أن تكون بديلا عن السلطة في هذا الجانب .

وفي هذا المجال اشتهر الشيخ أحمد بن يوسف الملياني بمعالجة الأمراض والأوبئة المنتشرة في المغرب الأوسط نظرا لما تميّز به من صلاح فقد كان يلجأ إليه المرضى والموبوؤون ويلتمسون عنده الشفاء وكان يلامس المرضى ولا يخشى انتقال الداء عن طريق العدوى[28] .

وهذا الدور الذي اضطلع به الشيخ وزاويته في الإيواء والإطعام ،ومواجهة الأمراض والعلل المنتشرة في المغرب الأوسط عجزت الدولة الزيانية أو العثمانية على مواجهته، ولم تستطع التكفل بالمرضى الذين قتلتهم الأوبئة خاصة من العدوى، ووقفت موقف المتفرج وغلقت أبواب العلاج أمام المصابين، مما جعل زوايا الشيخ أحمد بن يوسف تقوم بهذه المهمة وتصبح مراكز للعلاج ولكل أفراد المجتمع ،ولم تستثني شريحة معنية دون تمييز أو مفاضلة فاستقطبت العام والخاص والمستقر وعابر السبيل والتابع والمنكر[29].

وهكذا نجح الشيخ أحمد بن يوسف في تنويع نشاط زاويته لمواجهة الأزمات الإقتصادية ،وأصبحت بديلا عن السلطة أو منافسا لها ،أمام تزايد الأتباع وتعدد

الوظائف الإجتماعية والإهتمام بالمجتمع وما لحق به من مشاكل كالمجاعة والأمراض المختلفة، ومواجهة الأزمات والنّوائب بما أتيح له من قدرات وإمكانات أمام عجز السلطة وغيابها في التكفل بمن أصابتهم الأزمات ، وهذا ما جعل المجتمع المغاربي يعتمد على شيوخ الطرق ورجال التصوف أمام غياب السلطة للتكفل بالفئات الإجتماعية ،وبرز دور الزوايا الصوفية في المجال الإجتماعي بما أتيح لها للتخفيف من آلام البؤساء .

4) علاقة الشيخ بالأمراء الزيانيين:

كان استقرار الشيخ أحمد بن يوسف الملياني برأس الماء وإنشاء زاويته بالقرب من مقر السلطة أثر كبير على العلاقة بينه وبين الأمراء الزيانيين ،ففي البداية نظرت السلطة الزيانية إلى الشيخ بعين الرضا وعملت على كسب ودّه ،وساهمت في دعم الزاوية وتمكينها من موارد اقتصادية هامة مثل الأراضي ممّا جعلها تتمتع بسلطة موازية للسلطة الحاكمة بكثرة الأتباع والموارد.

ولكن العلاقة لم تستقر على التوافق إذ سرعان ما بدأت تعرف توترا كبيرا بسبب خلافات بين الشيخ والأمراء الزيانيين ،ويكتنف الغموض بداية ظهور الصراع بسبب الإختلاف حول الفترات الزمنية التي مرّ بها حكم الأمراء الزيانيين ولم يقتصر الصراع على مرحلة معينة ،ولعل المرحلة التي عرفت ظهور الصراع الراشدي الزياني ترجع إلى عهد الأمير أبو عبد الله محمد الملقب بالمتوكل حكم مابين (866-880هـ / 1462-1475م) [30].

فقد واجه الشيخ أحمد بن يوسف مشاكل عديدة في عهده ،ولم يكن على وفاق معها وكان كثير النقد للأسرة الحاكمة منتظرا الفرج على يد قوة إسلامية تنقذ البلاد من القوة المسيحية التي تمثلها إسبانيا [31]،مما جعله يغادر المنطقة حوالي سنة (911هـ/1505م)،متنقلا بين المناطق المجاورة حيث نزل في يلل ببني وغدمن شمال القلعة

،وانتقل إلى مصراتة ،ثم تانصرت ، إلى أن استقر به المقام في سهل الشلف، وكان يؤسس الزوايا في مختلف المناطق التي يستقر بها للقيام بوظيفته الدعوية الصوفية [32].

وقد اختلفت الروايات حول الأسباب التي أدّت إلى نشوب الخلاف بين الطرفين ، حيث يرجع البعض ذلك إلى سماح الحكام الزيانيين لليهود بتسيير الشؤون المالية للدولة[33]،إضافة إلى تخوّف الزيانيين من تزايد نفوذ الشيخ أحمد بن يوسف وكثرة عدد أتباعه ومحاولتهم الحد من نشاطه ووضعه تحت سلطتهم فدعا عليهم ،وحاولوا حرقه ولكن النار لم تلتهمه على حسب ما ذكره مترجموه[34]، ولعل هذا التوتر في العلاقة هو جعل أحمد بن يوسف يغادر حِوار الأمراء الزيانيين من زاوية رأس الماء ووطن بني راشد .

أما اشتداد النزاع الراشدي الزياني فقد عرف تطورا في عهد الأمير الزياني أبي حمو والذي تولى عرش الدولة الزيانية حوالي سنة (922هـ/1516م) وعرف عهده ظهور الصراع الإسباني العثماني في المغرب الأوسط وتراجع السلطة الزيانية أمام الأطراف الجديدة، وقيام الأمير الزياني بربط علاقته مع الإسبانيين واعترافه بسلطتهم والتبعية لهم ،وأثر ذلك على الشيخ أحمد بن يوسف المليانى الذي تعرض للسجن في عهد حكم هذا الأخير [35]

.

5) التقارب العثماني الراشدي :

كان للأوضاع التي عرفها المغرب الأوسط ،واحتلال الإسبانيين للسواحل ،دور في ظهور الإخوة بربروس عام 918هـ/1512م،وقيامهم بوظيفة الجهاد التي عجز عنها الزيانيون المتحالفون مع الإسبان، ونتيجة للإنتصارات التي حققها الإخوة عروج وخير الدين في مناطق مختلفة .

ولعل الحديث عن هذه العلاقة يرجع إلى تاريخ سنة(923هـ/ 1517م) بداية التواجد العثماني بالمنطقة رغم اختلاف الروايات عند طريقة التقارب ، وفي إطار التحركات

التي كان يقوم بها عروج انتقل إلى منطقة تلمسان رغبة منه في نصرة سكان تلمسان من الخطر الإسباني وحليفه الحكم الزياني متبعا طريق الهضاب ومتجها إلى قلعة بني راشد وجهته بعيدا عن الساحل حتى لا يصطدم بالإسبان ، ولا نعلم إن كانت هناك اتصالات سابقة بين شيخ الطريقة الراشدية ، وهل كان اتجاه عروج في مساره يسعى للوصول إلى الشيخ أحمد بن يوسف ،حيث تؤكد الرواية على معرفة سابقة بين الطرفين فأثناء توغل عروج بوطن هوارة وفي طريقه إلى القلعة في جيش كبير أثار ذلك هلع سكان المنطقة حيث عمل المليانى على تسكين روعهم ، مما قد يشير إلى بداية التقارب بين عروج وشيخ الطريقة الراشدية ، كما أن القوة العسكرية التي تميّز بها جيش عروج والإنتصارات المتتالية جعل سكان تلمسان يلجأون إليهم ،فقام وفد تلمساني بالتوجه إلى الإخوة لطلب النجدة منهم ، وكانت بدايات مشاركة الشيخ أحمد بن يوسف ضمن جيش عروج في حملته هاته على القلعة ثم تلمسان ،وشارك مشاركة فعالة في تدعيم سلطتهم ضد الحكام الزيانيين [36] .

وفي رواية أخرى أن بداية التقارب بين الأتراك والشيخ أحمد بن يوسف عندما قام الإخوة بربروس بزيارة الشيخ أحمد بن يوسف المليانى سنة 1517على شاطئ البحر غرب مدينة وهران ،حيث دلهّم أسير مغربي إلى ذلك ، ونصحهم بالإتصال برجل من ذوي النفوذ الروحي، وقد قال له عروج أنه سيصدق ولاية وكرامة الشيخ إذا استطاع أن يطلعه عن مقاصده ،وإن وفق سيقبل رجليه ويطلب منه الدعاء الصالح ،ولما وصل إلى الشيخ قال له هذا الأخير: "عزمت إذن وأصحابك على الهجوم على العدو "فجثى عروج عند قدميه " حسب رواية الصباغ [37] .

ولعل أهم مظاهر أسباب التقارب بين الطرفين ترجع أولا إلى ظهور العثمانيين في الجزائر وقيامهم بالوظيفة الجهادية ضد الخطر الإسباني ،فكان موقف الشيخ أحمد بن يوسف يتمثل في تدعيمهم ابتداء من سنة (923هـ، 1517م) لمواجهة الخطر المسيحي،

وبذلك أصبح توحيد القوات والتعاون للدفاع عن البلاد واجبا على المسلمين كافة ،إضافة إلى أسلوب الحكام العثمانيين في التقرب إلى الزعامات المحلية ،والإعتماد على العلماء والمرابطين وشيوخ الطرق في وقت الشدة باعتبارهم يمثلون الرأي العام ،ويؤثرون بالنصح والموعظة والنفوذ الروحي على العامة [38].

وقام التحالف على أساس أن لا يتدخل العثمانيون في شؤون أتباع أحمد بن يوسف وذريته وحصولهم بموجب ذلك على هدايا قدّرت بأكثر من أربعة آلاف دينار ،وفي المقابل قام أحمد بن يوسف بمساعدة عرّوج للقضاء على سلطة الأمير الزياني المتحالف مع الإسبان بهدف المحافظة على العرش [39].

ودافع الشيخ أحمد بن يوسف وأتباعه عن قلعة بني راشد بمساعدة إسحاق ومن معه من الأتراك واستشهد أغلبهم واستطاعوا أن يردّوا الأمير أبوحمو ومن معه من الأعراب والإسبانيين [40]، وواصل السلطان أبو حمو ومن معه من الإسبان الهجوم على تلمسان وتمكنوا من تحطيم أسوار المدينة واحتلالها بعد معركة عنيفة استشهد فيها عروج (ت 925هـ/1518م)،وتم اعتقال الشيخ أحمد بن يوسف، ثم أُفرج عنه بعد تولي مسعود حكم الزيانيين [41].

وقد اعترف العثمانيون بفضل الشيخ أحمد بن يوسف في مساعدتهم ضد الزيانيين وحلفائهم الإسبان فازدادت العلاقة توطّدا بين الزاوية الراشدية والسلطة العثمانية، وقام العثمانيون بدعم زاويته واحترام أتباعه ،حيث قام خير الدين سنة 1518 بإرسال هدايا ثمينة إلى الشيخ المليانى كاعتراف له بجميله وقدم له مبلغ مالي قدره 4000دينار مكافأة له على دعمه لهم في حروبهم ضد الزيانيين ،كما خصص له جزءا من الجزية المفروضة على اليهود والمقدرة بثمانية صيعان ،عند ذهاب الحجاج إلى الحرمين [42].

ورغم التحالف الموجود بين الطرفين إلى أنّ الشيخ أحمد بن يوسف كان متحفظا من العثمانيين وحكمهم خاصة بعد قيامهم في تلمسان بإفساد بعد دخولهم إليها [43] ،ولعل هذا التصرّف هو الذي جعل الشيخ المليانى يضمن رسالته التي وجهها إلى خير الدين نوعا من الإستقلالية عنهم وعدم التقيد بحكمهم حيث يقول : "إن حكمك لا يجري علينا ولا على نسلنا ولا على من تعلق بنا ولا على نسلهم فإن رهبتم أحسنتم وإن خالفتم عوقبتم "[44].

لم يعمّر الشيخ أحمد بن يوسف طويلا بعد الأحداث التي عرفتها تلمسان ووفاه الأجل سنة(931هـ/1524 م)،وتذكر السِّير أنّه أوصى في حياته أن يشدّ نعشه على ظهر بغلة ولا يدفن إلا في الموضع الذي تقف به فكان اتجاه الدابة إلى مليانة حيث أقيم هناك ضريحه[45] ،الذي أصبح مزارا للأتباع، وربما يكون لخير الدين دور في تحديد مكان الدفن حتى يسهل على السلطة العثمانية مراقبة نشاطه[46].

وانتقلت أسرة الشيخ أحمد بن يوسف وأتباعه من تلمسان إلى مليانة الأقرب إلى العاصمة حيث ضريح الشيخ ،واستمرت العلاقة بينها وبين السلطة العثمانية يميّزها الإحترام والتقدير حتى بداية الإحتلال الفرنسي للجزائر، حيث ظل أتباع الشيخ متبعين لنهجه في دعمهم للسلطة العثمانية مقابل محافظة العثمانيين على شرط الشيخ المليانى ودعمهم له ، ولعل هذه الإستمرارية هي التي جعلت خير الدين يقوم بتكريم ابن الشيخ المليانى محمد بن مرزوقة حين قدم إلى الجزائر وأهداه هدايا تليق بمقامه واعترف به خليفة لوالده في رئاسة الطريقة الشاذلية ونشر دعوتها [47]،وعيّنه أميرا على ركب الحجيج إلى الحرمين ،واستمرت هذه المهمة في أحفاده من بعده حيث يذكر الورتلاني في رحلته أنه اتّصل في حجته الأولى بحفيد الشيخ أحمد بن يوسف المعروف بـ: أحمد بن طيبة في سنة 1153هـ/ 1740م [48].

وتواصلت هذه العلاقة التحالفية بين الطريقة الراشدية والسلطة العثمانية فقد جسدها أيضا أحد أتباعه وهو "ابن شعاعة " الذي كان يقوم بخدمة العثمانيين مقابل بعض الإمتيازات كإعفائه من الضرائب ومنحه وقفا تمثل في أرض زراعية ، كما يذكر Bodin في هذا الجانب أنّ السلطة العثمانية قد حافظت على هذا التحالف حيث قام الداي حسين باشا بمصاهرة الشيخ وتزوج من إحدى حفيداته [49].

واستفاد العثمانيون في توطيد أركان حكمهم وتدعيم نفوذهم من الشيخ أحمد بن يوسف وأتباعه داخليا ،وحتى خارجيا في تنافسهم مع الدولة السعدية الناشئة التي دخلت معها في صراع حول تلمسان ،وبهدف استكمال مشروع توسيع الإمبرطورية العثمانية نحو المغرب الأقصى [50]، كما أنّ تأثير التصوف واعتقاد بعض الحكام في الأولياء وتأثير كراماتهم جعلهم يخشون من تأثير دعواتهم ،وينظرون إليهم نظرة تعظيم ،ويحضون منهم بنعوت سامية تشير إلى نظرة التفضيل والتبرك والذي ينظر بها الناس إلى من ارتقوا في نظرهم إلى درجة الأولياء.

ويبدوا أنّ هذا التأثير الروحي قد انعكس على تعامل الحكام مع شيوخ الزوايا ،فكانوا يقومون بتقديسهم إلى حدّ الإفراط ،وغالبا في احتفالات الزوايا الموسمية من خلال "الزيارة " والرعاية المادية ، حيث كان البايات يتنقلون إلى الأضرحة والمزارات والزوايا التي تقام بها الإحتفالات الدينية ،مما أعطاها طابعا رسميا وتشريفيا من السلطة الحاكمة [51].

والمكانة التي احتلها الأولياء والصلحاء جعلت العثمانيين يدفنون الحكام إلى جانب الأضرحة وقبور الأولياء مثل الحاج أحمد داي الذي قتل سنة (1109هـ/1697م) ودفن بجانب ضريح عبد الرحمان الثعالبي[52]،وكانت الأضرحة والمزارات والزوايا أماكن مقدسة وملاجئ لا يمكن انتهاكها ،حيث يستمد المرابط أو مقدم الزاوية سلطته من نفوذ زاويته

،وممثلا لأتباعه لدى السلطة المركزية ،وناطقا رسميا باسمهم في علاقته مع موظفي البايليك (53).

وكان لهذه السياسة المتبعة من طرف السلطة العثمانية اتجاه الزوايا والمرابطين وشيوخ الطرق أثر على العلاقة المتميزة بين الطريقة الراشدية والدولة العثمانية وخاصة في مواجهة الإحتلال الإسباني لطرده من السواحل الجزائرية ،ويظهر دور الجهاد في توحيد القوى الدينية ،واستمالة السكان إلى جانب العثمانيين في مواجهة الخطر الخارجي ،واستمرار التعاون بين المرابطين والعثمانيين في هذه المرحلة على أساس جهاد العدو المشترك وضمان المساعدة في استتباب الأمن داخل الأيّالة مقابل امتيازات محددة ،وشاع في الجزائر التحالف بين المرابطين والعثمانيين،مما ساعد على إقبال الناس على الطرق الصوفية وتكاثر عددها وأصبحت تتمتع بنفوذ موازي للسلطة من خلال الإمكانيات المتعددة وكثرة الأتباع.

الهوامش :

(1)- تنتسب القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت561هـ/1166م) تنشأت في بغداد ،وانتشرت في مختلف مناطق العالم الإسلامي ،تقوم على برنامج تربوي ، يقوم على قواعد سلوكية في العلاقة بين الشيخ المؤدب و المريد ، وعلى أساس طريقة تربوية تتضمن النصيحة والأخذ بيد المريد وفق مراحل خلال عملية التكوين الصوفي والتدرج به من السهل إلى الصعب إلى غير ذلك من المبادئ' كما بنيت الطريقة على تخصيص أوراد وأحزاب وأدعية تتضمن مجموعة من الأدعية مثل دعاء التوسل والدعاء الشريف ،و الأحزاب مثل حزب الإشراق ،والحزب المبارك ، وحزب الحفظ ، والإستغفار مئة مرة والتسبيح مئة مرة، وذكر لا إله إلا الله مئة مرة ،وقراءة الفاتحة بعد الصلوات الخمس والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعدد 121 مرة ،للتفاصيل عن القادرية راجع : إسماعيل بن السيد محمد سعيد القادري، الفيوضات الرّبانية في المآثر والأوراد القادرية، تهذيب ومراجعة

عبد الهادي قطش، دار الهدى ، الجزائر،2004، ص 12؛ عبد القادر الجيلاني ، الأوراد القادرية ، ضبط وتوثيق محمد سالم بواب ، دار الألباب ، بيروت،1992، ص ص 14-20.أيضا ؛ أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،دار البصائر الجزائر،ج4،2007 ، ص 43.

(2)- وتنتسب إلى مؤسسها علي بن عبد الله بن عبد الجبار المعروف بالشاذلي ، المولود بغمارة من جبال الريف عام (593هـ /1196م) تتلمذ على الشيخ عبد السلام بن مشيش 622هـ/ 1225م)وكانت انطلاقة الشاذلية من مصر،بعد أن استوطن الشيخ مع أتباعه بالإسكندرية حوالي سنة (642/1244م) ،وقام بتكوين مدرسة صوفية أشرف عليها مع أبرز تلاميذه ، ومنهم الشيخ أبو العباس المرسي(616هـ/1219م – 686هـ/1287م)، وابن عطاء الله السكندري (ت 709هـ /1309م) الذين كان لهم دور كبير في نشر تراث الشاذلية وجمع أورادها ، للتفاصيل راجع : أحمد بن محمد بن عياد الشافعي،2004 المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، إعتنى به عاصم إبراهيم الكيالي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، ص 14، 16؛ محمد اعبيدو ، الشيخ مولاي عبد السلام بن مشيش ، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر ، الرباط ،2013 ،ص ص 4 -11.

(3)- سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، (1500-1830)،دار البصائر ،الجزائر،ج1،2007، ص 192.

(4)- FILALI(K) ,saintete Marabotique et Mysticisme ,Contribution A L etude du mouvement Marabotique en ALgerie sous La Domination Turque,in Insanyyat,N°3 ,P121.

(5)- سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ، ج1، ص495.

(6)- يشير سعد الله أن الشيخ التواتي منحهم رمزا يتمثل في عصا صلبة لكمال رايس دلالة عن قرب تخليه عن منصبه ، أما بيري رايس منحه عصا طرية دلالة على المستقبل الزاهر ، وهذا الاعتقاد كان له أثر في الحكام العثمانيين والمرتبطين بشيوخ التصوف : أنظر : سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1،ص 466.

(7) - نفسه ،ص 492.

(8)- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي الصّباغ، 1140هـ،1727م ،بستان العارفين هار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 1707 ،ص117.

(9) - Bodin (M) , Note et question sur sidi Ahmed ben Yousef, Rev Afr N°66, 1925, OPU, Alger, 1986 ,pp169,175.

(10)-عبد الله نجمي،التصوف والبدعة بالمغرب طائفة العكاكزة ق16-17م،ط1،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،الرباط،2000، ص63 .

(11)- محمد الحفناوي ،تعريف الخلف برجال السلف ، مطبعة بيير فونتانة الشرقية ، الجزائر ، 1979،ص ص 97، 100.

(12)- نسبة إلى الحسين بن علي رضي الله عنه :أنظر : مجهول المؤلف ،مناقب أحمد بن يوسف الراشدي المليانى ،دفين مليانة الجزائرية ،مخطوط ،مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز ،الدار البيضاء ،ص1.

(13)- لم يولي الصّباغ اهتماما بنسب أحمد بن مخلوف بقدر ما اكتفى بإبراز كونه راشدي النسب ، وانتمائه الهواري المريني الزناتي ،أنظر : الصباغ ،المصدر السابق ،ص 1، وعن سلسلة النسب المذكورة راجع : Emile Dermenhem , Le culte des saints dans LIslam Maghreben Paris,1954, p 223.

Ibid.p245.

(15)- Bodine ,op ,cit,p135 .

(16)- اسمه الكامل أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي والمعروف بزروق نسبة إلى جده ، ولد سنة (846هـ /1442م) بالقرب من تازة بالمغرب الأقصى وهو فقيه مالكي ،ويعتبر من الشيوخ الذين وضعوا قواعد للتصوف ترك مؤلفات عديدة مثل " قواعد التصوف " و"عدة المريد

الصادق" ، توفي بمصراتة (غرب ليبيا)، للتفاصيل أنظر عنه : عبد الرحمان بن محمد العياشي ، الأنوار السنية على الوظيفة الزروقية ، الخزانة العامة للرباط ، رقم 157 ، ص 2؛ أيضا السابق أحمد بابا التمبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تعليق عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، ط1، طرابلس،1989، ص،ص 130 -133؛ أيضا : محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني ، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تحقيق محمد حجي ، مطبوعات دار المغرب للتأليف والنشر والترجمة ،الرباط ، 1977،ص 48.

(17) – نجمي ،المرجع السابق ،ص63.

(18) – الصّباغ ،المخطوط السابق ،ص ص85-86.

(19) – نجمي ،المرجع السابق،ص ص 84-85.

(20)- إلى جانب مشروعية سند الإتصال فإن جميع الطرق الفرعية عن الزروقية تتنظم في سلك الشاذلية ،حيث تجعل للشيخ سند جديد في الشاذلية عن طريق محمد السخاوي ،عن أبي زيد القبابي عن علي بن عبد الكافي ،عن ابن عطاء الله أخص تلاميذ الشيخ أبي العباس المرسي مريد الإمام أبي الجسن الشاذلي أنظر: خشيم ، المرجع السابق ، ص 176، أيضا : الطاهر بونابي : طريقة أحمد بن يوسف المليانى ،الراشدي بين ثنائية التصوف العرفاني السني والطريقة الصوفية الإصلاحية ،من(9هـ-10هـ/ 15-16م) ،مجلة المواقف ، العدد السادس ،كلية الآداب واللغات والعلوم الإجتماعية والإنسانية ، معسكر ، ديسمبر 2011،ص ص 396- 397؛ النجمي ، المرجع السابق ،ص 115

(21) –وينسب إلى أحمد بن يوسف قوله في سنده "طريقتنا هذه من واحد إلى واحد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنظر : الصباغ ،المصدر السابق ،ص 130.

(22) –أنظر :بونابي ، المرجع السابق ، ص 397؛ سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1، ص ص 494- 496.

(23)–الصباغ ، المصدر السابق ،ص 243؛ بونابي ،المرجع السابق ،ص 398.

(24) –النجمي ، المرجع السابق ، ص 115.

(25) Rinn,op –cit ,pp 271,273.

(26) – الشفشاوني ، المصدرالسابق، ص125.

(27)– نفسه ص ص 64، 90.

(28)–الصّباغ ،المصدر السابق ،ص26

(29)– نفسه ص 27.

(30)–تعددت الروايات حول فترة حكمه مابين (880–911/1475–1505م) ، مابين (911هـ –922/ 1505– 1516م) للتفاصيل أنظر : Bodin , op,cit ,pp 166,170.؛ نجمي ،المرجع السابق ،ص 98.

(31)–أبو القاسم سعد الله ، السلطة السياسية والطرق الصوفية في المغرب العربي أثناء العهد العثماني ،ضمن كتاب على خطى المسلمين ،حراك في التناقض ،عالم المعرفة ،الجزائر ،ط2009.1، ص 183.

(32) –نجمي ،المرجع السابق،ص89.

(33) Marcel. Bodin,op,cit , PP 173, 174

(34)– سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، ج1،ص464.

(35) – نجمي ،المرجع السابق،ص99.

(36) – ينفي نجمي العلاقة بين حكم ابو حمو على المليانى بالسجن تنفيذا للحكم المؤجل الذي أصدره قبله الأمير أبو عبد الله ، مرجعا ذلك إلى السياق المختلف بين المرحلتين أنظر : نجمي ،المرجع السابق ، ص99.

(37) –الصباغ ،المصدر السابق ،ص11.

(38)– أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،1983،ص45.

(39) –نجمي، المرجع السابق، ص 102.

(40) – الصّباغ ،المصدر السابق ،ص13.

(41)– نجمي،المرجع السابق، ص 103.

(42) صادوق محمد الحاج ،مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف ، ديوان المطبوعات الجامعية،1964،ص ص104،105.

(43) .Bodin, op-cit, p.185.

(44)- صادوق، المرجع السابق ،ص105.

(45)- الصّباغ ،المصدر السابق ،ص125.

(46)- سعد الله ،السلطة السياسية .. ،ص198.

(47)- سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1،ص465.

(48) - الحسين بن محمد السعيد الورتلاني ،نزهة الأنظار في علم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد بن أبي شنب ، مطبعة فونتانا ،الجزائر ،1908، ص 107 .

(49) Bodin, op-cit, p.18 .

(50) Auguste,Cour ,Letablissment des dynasties des cherifsdu maroc et leur rivalite regence dAlger(1509- 1830),Paris,1954,pp de la 79,127.

(51) -عبد الله حمودي ،الشيخ والمريد ،النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية الحديثة ،ط4،ترجمة عبد الحميد جحفة ،دار توبقال للنشر ،الدار البيضاء ،المغرب ،2014، ص ص 110 ،112.

(52) - حسين بن رجب شاوش بن المفتي ،تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها ،ط1 دراسة وتحقيق : فارس كعوان ، بيت الحكمة ،العلمة الجزائر ،2009،ص32.

(53) ناصر الدين سعيدوني ،الإدارة العثمانية في الأرياف الجزائرية "نموذج مقاطعة دار السلطان " ،أعمال المؤتمر الرابع للدراسات العثمانية حول : الحياة الإدارية وبروز القوميات ودور الأقليات في الولايات العربية أثناء العهد العثماني ، جمع ومراجعة وتقديم :عبد الجليل التميمي ،منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات بزغوان ،تونس ،1992،ص 263.